الاسلام فى أوروبا الشرقية

فى أمسية الغزو المنغولى

(١٠١٦ م — ١٢٢٣ م)

للأستاذ المؤرخ أرسلان بوقدانووكز (*)

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

« يعرف التاريخ أن كثيراً من البوذيين أو المسيحيين قد اعتنقوا الدين الإسلامى ، ولكن هذا التاريخ لايعرف أن المسلمين قد اعتنقوا البوذية أو النصرانية »

الأستاذ و . بارتولد — جامعة بطرس برج

الذين يعنون بدراسة تاريخ أوربا الشرقية يعرفون أن الدين الإسلامى قد بدأ يتغلغل فى مملكة الخزر (وهى المنطقة الواقعة بين مصب نهر الفولجا والدون) من القرن الثامن الميلادى ؛ وفى بداية القرن الحادى عشر أصبح له أتباع كثيرون ، ولعله أصبح — وإن لم يكن صاحب النفوذ السياسى — الدين الذى يعتنقه أكبر عدد من الناس . ويعرفون أيضاً أن الإسلام فى مملكة الفولجا البلغارية (جمهورية التتار السوفياتية فى الوقت الحاضر) ، قد أخذ ينتشر فى نهاية القرن التاسع ، وفى النصف الأول من القرن العاشر ، حتى أصبح وطيد الأركان ، شامخ البنيان .

وعلى ضوء ما تقدم ، ويطيب لنا أن ندرس مصير الإسلام فى هذين البلدين أثناء القرنين السابقين للغزو المنغولى ، وذلك بين سنة ١٠١٦ م ، وهى السنة التى انهارت فيها مملكة الخزر بصورة نهائية ، وسنة ١٢٢٣ م ، وهى السنة التى ابتدأ بها الغزو المنغولى الأول .

(*) سبق أن قدمنا الأستاذ المؤرخ للسلم القراء فى عدد الرسالة ٩٢٩ وهذا مقال رائع آخر نصره فى مجلة (اسلامك ريفيو عدد مايو ١٩٥١) نترجمه لقراء الرسالة لبراعة العرض ودقة التحليل وعمق الفكرة ، التى يمتاز بها أسلوب هذا المؤرخ المسلم النابه فى كل ما يكتب فى موضوع اختصاصه من تاريخ المسلمين .

المترجم

والأمر على جانب عظيم من الخطورة ؛ ذلك لأن أراضى هاتين المملكتين قد أصبحت المركز الرئيسى للدين والسياسة لحياة عصر هؤلاء البرابرة الذهبى ؛ هذا القسم من الأمبراطورية المنغولية الذى أخضع لحكمه روسيا حتى نهاية القرن الخامس عشر ، والذى غدا فيه الإسلام — فى وقت قصير — الدين العام لهذه الأمبراطورية .

مصير الاسلام في المملكة البلغارية على الفولجا

لانوجد صعوبة تتعلق بمصير المملكة البلغارية على نهر الفولجا أثناء الفترة التى نتحدث عنها ؛ إذ بقيت هذه المملكة حتى الغزو المنغولى ، والدين الإسلامى غير منتشر بين الطبقة الحاكمة من الأتراك والبلغاريين فحسب ، وإنما بين القبائل الفينية (Finuish) التى يتألف من أفرادها السواد الأعظم من السكان . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا لا نعرف بالضبط المستوى الذى وصلت اليه الثقافة الإسلامية بين بلغارى الفولجا فى الفترة نفسها .

وغنى عن البيان أن نشير إلى أن تضعضع المملكة الكيفيانية (Kievant State) ، التى كانت تقع إلى الشمال الشرقى من روسيا الحديثة ، والتى كانت تعرف باسم سوزادلى (Suzadly) ، فى محاذاة المملكة البلغارية ، قد جعل الأخيرة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، المركز الرئيسى للحياة الروسية السياسية . وفى بداية أمسية الغزو المنغولى ، أخذت روسيا تمد سلطانها على حساب المملكة البلغارية ، حتى استولت عام ١٢٢١ م على مصب نهر أوكا (أحد الروافد الرئيسية لنهر الفولجا) ، وفى السنة نفسها بنيت مدينة نجنى نفجورد (Nijni Novgord) .

وتنحصر المشكلة ، تحت وطأة هذه الظروف ، فى تتبع مصير الإسلام فى أوربا الشرقية ، فى أمسية الغزو المنغولى ، فى مملكة الخزر .

زالت مملكة الخزر من سجل الوجود عام ١٠١٦ ، حين هاجمتها القوات البيزنطية والروسية المتحالفة ، فهزمت تلك القوات مجتمعة ، آخر ملوك الخزر ، ووقع أسيراً فى أيديها . ومصير الإسلام فى أراضى مملكة الخزر السابقة ، بعد سقوطها

فى أيدى أعدائها ، لم يدرس الدراسة التى يستحقها ، ولم يعن به أحد ، كما أعرف ، حتى اليوم .

ومرد ذلك إلى قلة المصادر ، ليست المكتوبة منها فحسب ، وإنما الآثار الإسلامية نفسها ، فإنها مشوهة وقليلة جدا . ولكى نفهم هذا الأمر فهما دقيقاً ، علينا أن نذكر أن أراضى مملكة الخزر السابقة قد صارت مسرحا لحروب دامية ومدمرة ، كانت تمحو من الوجود مدنا بأسرها ، وتتركها أنقاضا ، تنشأ فوقها فى كثير من الأحيان ، مدن حديثة .

ومن المحقق أن هذه الأنقاض تؤلف مصدراً خصبا للآثار الإسلامية ، وأن عمليات التنقيب ، لأسباب لا يتسع المجال لذكرها ، لم تتجاوز فى أحسن أوقاتها ، المراحل الأولى ، وفى كثير من الأماكن المهمة لم نبدأ أبدا . ونذكر على سبيل المثال أن موقع عاصمة مملكة الخزر أتيل لما يكتشف

ولما كانت المدن التى بناها هؤلاء البرابرة فى عهدهم الذهبى ، قد قامت على أنقاض مدن مملكة الخزر التى هدموها ، لذلك كثيرا ما كانت نتيجة التنقيب ، لا تتجاوز الطبقات التى تتصل بعهد أولئك البرابرة الذهبى . أما الطبقات التى بحتها ، والتى تقص حكاية مصير الإسلام فى ثناياها ، فى الفترة التى نتحدث عنها (١٠١٦ — ١٢٢٣ م) فلما تصل إليها أيدى المنقبين .

غير أن هذا النقص فى هذه المقدمات التى تعين على دراسة هذه المشكلة التاريخية ، ينبغى أن لا يبقى عقبة تبرر إهمال هذه الدراسة . وعلى النقيض من ذلك يجب أن تحفز هذه الحقيقة رغبتنا ، وتبعث فينا حب الكشف عن المجهول ، وتدفعنا الى التفتيش عن مصادر لم تفتش عنها قبل اليوم . ومن تحصيل الحاصل أن نقول أنه ينبغى ، بادىء ذى بدء ، قبل الحصول على معلومات وافية عن طريق التنقيب ، أن نلخص ما هو معروف من حقائق التاريخ ، لنستطيع رؤية النتائج التى يمكن أن تنشأ عن مقدمات من هذا النوع . وهذا ماحفزنى إلى محاولة الكشف عن هذه الحقائق الغامضة ، التى ليس فى استطاعتى قول الكلمة الفاصلة فى شأنها ، ولكن إذا قدر لى أن أوضح خطوط المشكلة الرئيسية بعض التوضيح ، فقد يصيب محاولتى ما أرجوه لها من توفيق .

وسأستعين ، بكل ما يتصل بالمصير السياسى لسكان مملكة الخزر السابقة ، بنظرية المستشرق الروسى العظيم ف جريجوريف (V: Grigorfev) ، الذى يعتقد أن أولئك السكان قد اندمجوا بالقبشاك (Kipchaks) ، وهم قوم رحل من دم تركى ، تطلق عليهم المصادر الأوربية اسم كومانز (Cumans) ، والمصادر الروسية اسم بولوفرسيس (Polovrauls) (١) . ولسوء الحظ ، لم يحاول البروفسور جريجوريف ، كما أعرف ، دعم آرائه بمصادر يمكن الرجوع اليها ، ولذلك لا مندوحة لنا من إيضاح بعض الغموض الذى يكتنف هذا الموضوع .

أما مصير الإسلام فى مملكة الخزر السابقة ، فسأحاول أن أوضح أن خضوع هذه المملكة للقبشاك ، قد تبعه امتناق العناصر التى استقرت من بداوتها ، عن هؤلاء الناس ، الدين الإسلامى الحنيف .

وتحت هذه الظروف ، سأحاول تقسيم هذا المقال إلى قسمين:

(١) اندماج الخزر فى القبشاك . (٢) امتناق العناصر التى تحضرت من القبشاك الإسلام فى مملكة الخزر السابقة

١ — اندماج الخزر فى القبشاك :

نظرا للدور المهم الذى مثله القبشاك فى القسم الشرقى من أوربا ، والقسم الغربى من آسيا ، نرى قبل المضى فى الحديث عن هذا القسم ، أن نشير إشارة عابرة إلى أهميتهم السياسية فى التاريخ .

إن القبشاك هم آخر الجماعات الرحل التى وصلت إلى أوربا من أواسط آسيا ، قبل المغول ، بأعداد كبيرة جدا . وحين نتحدث عن أهميتهم السياسية يكفى أن نعرف أن هجرتهم قد شملت مساحات هائلة ، امتدت من منابع الأرتشى (Irtush) فى سيبريا عبر سهوب الكازاخستان (Kazakhstan) إلى جنوب روسيا حتى مصب نهر الدانوب ، وعلى الرغم من أن القبشاك لم يتمكنوا من تكوين وحدة اجتماعية ، وعاشوا حتى الغزو المغولى ، قبائل متفرقة ، بسبب عددهم الهائل ، والمساحة الشاسعة التى شملتها

(١) بحث الأوبرا المشهورة التى كتبها بوردون Borpdin وعنوانها (الأمير أجور) عن حملة هذا الأمير ضد هؤلاء الناس "

هجرتهم ؛ إلا أنهم لعبوا دورا عظيما فى تاريخ البلدان المجاورة ، وبصورة خاصة فى خوريزم ، وجورجيا ، وروسيا ، وهنغاريا ، وبزنطيا . ومن الضرورى أن نشير إلى أن مصر كانت تستمد مماليكها من منتصف القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر من هؤلاء القبشاك بصورة رئيسية ؛ ذلك لأن تجار الرقيق من الإيطاليين ، كانوا يجلبون من موانىء شبه جزيرة القرم ، الرقيق من القبشاك ، ويبيعونه بعد ذلك فى ميناء الإسكندرية . وكما هو معروف فى التاريخ ، أن السلطان بيبرس (توفى سنة ١٢٧٧م) أحد أعاظم المماليك كان من القبشاك ، وأخيرا أصبح القبشاك يؤلفون الكثرة المطلقة من سكان عصر المغول الذهبى .

أما المستوى الثقافى لأولئك القبشاك فقد كان يتباين كثيرا؛ إذ كان يمتد ، إلى حد بعيد ، على قدر اتصالهم بالبلدان المتمدينة من قريب أو من بعيد . ومن المحقق أن أولئك الذين عاشوا مجاورين للخورزم ، وعددهم كبير جدا ، قد تأثروا بالإسلام تأثرا قويا عميقا . والسؤال الذى بقى يدور فى خواطرنا فى هذه المرحلة ، أن نبين المصير الذى آل إليه الخزر بعد سقوط دولتهم .

لقد اجتاح القبشاك أراضى مملكة الخزر السابقة ، فتلاشى بالتدريج اسمهم من التاريخ ، ولم يعد لهم إلا بعض الذكر فى المدن . وقلما تمر بدراستنا بفترة تتصل بأراضى مملكة الخزر السابقة ؛ ولا نجد ذكر القبشاك يملأها ، وإلى جانبهم ، بصورة محدودة ذكر الآلان Alains ، وهم شعب من أصل إيرانى كونوا أقلية كان لها خطرها فى مملكة الخزر السابقة . والذين لا يزال أحفادهم ، حتى اليوم ، يعيشون فى شمال القفقاس ويعرفون بالأوسيتة (Ossetes) . ولهذا السبب نجد أن رشيد الدين ، مؤرخ امبراطورية المغول المشهور ، حين يتحدث عن وصول المغول فى الهجرة الأولى ، للامبراطورية الشرقية عام ١٢٢٣ م يصف كيف أتوا من إيران عن طريق القسم الشرقى من القفقاس ، واضطروا فى الشمال إلى كسر شوكة المقاومة القبشاكية والألانية : ومن البديهى أنه لو بقى للخزر سلطان سياسى ، لعبوا دورا مهما فى مقاومة المغول ، ولكان لهم ذكر فى تاريخ رشيد الدين . ونجد الحقيقة نفسها ، فى استيلاء المغول بصورة نهائية على أراضى مملكة الخزر السابقة فى ابتداء السنة الثلاثين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فلقد كان القبشاك الذين قاوموا المغول والشعوب الأخرى لا ذكر لها ، ومن بينهم الخزر

والمصادر الفارسية تتحدث من جهة أخرى عن استيلاء القبشاك على شبه جزيرة كرش Kerch فى أهمية الغزو المغولى ، والتى كانت تحت حكم الخزر

ومن غير المعقول أن أمة قوية كالقبشاك ، يمكن أن تترك وراءها أمة محاربة كالخزر دون أن تخضعها أولا

وأحسب أننا فى غير حاجة إلى الدخول فى تفاصيل أخرى بعد ما تقدم لتؤكد أن القبشاك ، قلعوا الخزر فى المنطقة حتى مصب الفولجا ، تلك المنطقة التى كانت المركز السياسى لدولة الخزر ، التى ذابت فيهم بالتدريج ، والتى ازدهر فيها الإسلام قبل وصول هؤلاء الغزاة الذين سارعوا لاعتناقه

وسنحاول الآن تبيان أن اندماج الخزر بالقبشاك قد تبعه اعتناق العناصر التى استقرت من هؤلاء الغزاة ، مبادىء الدين الإسلامى الحنيف بالتدريج

٢ — إعتناق القبائل القبشاكيه التى استقرت فى مملكة الخزر الإسلام : —

يعتبر المستشرف الروسى العظيم ف . بارتولد الذى توفى عام ١٩٣٠ حجة فى سعة الاطلاع على مصادر التاريخ الاسلامى فى مملكة الخزر السابقة . والذى أعرفه أنه لم يحاول مطلقا ، دراسة مصير الإسلام فى هذه المملكة دراسة جدية ، وكثيرا ما يجد الإنسان بعض الأحيان تناقضا فيما كتبه عن هذا الموضوع ولكن ما ذكره بصورة عامة عن جبروت الاسلام ، وسحره ، وما اسهب فيه من الدعاية لذلك الدين بين العناصر التركية ، يسند إلى حد بعيد الرأى الذى بسطناه فى هذا الموضوع عن اعتناق هؤلاء القبشاك الدين الاسلامى ولا يتناقض معه أبدا وقد رأيت أن أقتبس بالحرف الواحد ما ذكره المستشرق العظيم بارتولد عن هذا الموضوع :

قال بارتولد : « إن المعجزة العظيمة للاسلام ، إذا ما قورن بالديانات الأخرى ، تتركز فى أن العالم الاسلامى كان فى تلك

الفترة ، فى مستوى رفيع من الطاقة الثقافية ، والرخاء الاقتصادى بين الشعوب المتمدنة . وكان هؤلاء الرحل فى حاجة مستمرة إلى البضائع المصنوعة فى تلك الأقطار المتمدنة ، وبصورة خاصة إلى الاقمشة . وكان الاتجار مع هؤلاء الرحل ، فى الوقت نفسه ، عظيم النفع لتلك الشعوب المتحضرة . لكن هذه التجارة كانت ضرورية لهؤلاء الرحل الذين كانوا يطلبونها من الأقطار الغربية المتمدنة ، ولما أصبحت البضائع التى يشترونها من البلدان الإسلامية من ضروريات حياتهم تأثروا بالإسلام ، لا عن طريق الدين فحسب بل عن طريق الحضارة الزائفة التى كان يتسم بها ذلك الدين . ولم يكن أمامهم غير اعتناق الإسلام ليجعل صلاتهم الروحية والمادية متينة مع تلك البلدان والشعوب الإسلامية

« ولقد أظهر الإسلام صفة أخرى يمتاز بها عن سائر الديانات المعروفة ، أثناء الدعاية له بين الترك ؛ ذلك أنه على الرغم من قلة عدد اتباعه بالقياس إلى الديانة البوذية والمسيحية ، فأنه يمكن لنفسه فى قلوب البشر كدين عام للانسانية ، بأوسع ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، لأنه لا يقصر نفسه على جماعة أو جنس من بنى الإنسان . إن النجاح الذى سادفته الديانات الأخرى كان فى بعض الأحيان أكثر مما وصل إليه الإسلام ؛ غير أن ذلك النجاح لم يعمر طويلا . فلقد عرف تاريخ الديانات فيما عرف الديانة المانيكية (١) Manicheism التى امتد ظلها فوق الأرض وكان لها أتباع ينتشرون من جنوب فرنسا إلى بلاد الصين ، غير أن هذا الانتشار لم يكفل لها الحياة فذهبت إلى غير رجعة ، ومحيت من سجل الوجود . والديانة البوذيه ابتدأت بنشاط عالى ، وراحت تنتشر فى بلاد الغرب محمولة على أجنحة دعاية قوية ، ولكنها انكمشت على نفسها لتصبح ديانة البلدان الراقدة فى شرق آسيا . وقبل انتشار الإسلام كان للنصرانية أتباع بين الترك أنفسهم ؛ وفى الوقت الذى أوصدت الأبواب فى منغوليا أمام الدعاية الإسلامية ، اعتنق الديانة المسيحية عدد كبير من الناس الذين كانوا يعيشون فى الأجزاء الجنوبية والشرقية والغربية من هذه البلاد ؛ غير أن هذا النجاح لم يكن غير سحابة صيف . وفى الوقت الحاضر يبدو أن النصرانية هى ديانة العالم الأوربى ؛ غير أن المسيحيين وراء حدود هذا العالم الأوربى ، من الناحية العددية والنمو العقلى ليست لهم قيمة فى الأمرين بالقياس إلى المسيحيين فى أوربا . أما الإسلام فلقد أصبح عن طريق ما فيه من صدق ، دين الشعوب المتمدنة فى أوساط آسيا وشرقها ، ويزيد عدد اتباعه وخاصة فى الهند ، وفى الأرخبيل الأندونسى عن عددهم فى غرب آسيا . ويؤلف المسلمون فى الصين عنصرا مستقلا بثقافته الدينية التى تقوم بالتعبير عنها لغتهم الأصلية دون الشعور بالحاجة إلى مساعدات خارجية ، على حين أن محاولة الديانة المسيحية التمكين لنفسها فى الصين قد باءت بفشل ذريع وخيبة مخجلة . وفى أفريقيا صادفت النصرانية نجاحا ضئيلا بالقياس إلى الدين الإسلامى وبين الأحباش ، الشعب الأفريقى الوحيد الذى استطاعت الكنيسة أن تجد لها مكانا فيه .. امتدت الدعاية الإسلامية إلى المكان نفسه ، وصادفت نجاحا حتى فى القسم الأخير من القرن التاسع عشر . وخلاصة القول أن التاريخ يعرف أن كثيرا من الشعوب البوذية أو المسيحية قد اعتنقت الإسلام ، ولكنه لا يعرف أية جماعة إسلامية اعتنقت البوذية أو المسيحية »

الكلام صفة — على محمد سرطاوى

١ — ديانة انتشرت فى القرن الثالث إلى الخامس الميلادى ، وانبعثت فى فارس ، وهى تضع المجوس مع الخالق فى خريطة واحدة